MUDALLA : PROCEEDING INTERNATIONAL CONFERENCE ON ARABIC LANGUAGE
ISSN : 2807-8780
(MUDALLA)
المؤتمر الدولي للغة العربية وآدابها وتعليمها
قسم الأدب العربي جامعة مالانج الحكومية

التصوف الطرقي بغرب إفريقيا: الجذور والتطور والأدوار

The Sufi Orders in West Africa: Roots, Development, and Roles

د. أنس بوسلام

مفتش تربوي، وحاصل على درجة الدكتوراه، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء

Anassbou352@gmail.com

Abstract

The article begins by examining the introduction and spread of Sufi orders in West Africa. It then reviews the most important Sufi orders in the region, specifically the Qadiriyya, Tijaniyya, Mouridiyya, and Lahiniya. The article then explores the roles of Sufi orders at the political, cultural, economic, and social levels.

Keywords **Sufism, Sufi orders, West Africa.**

مستخلص البحث

يتناول المقال – في البداية – دخول الطرق الصوفية وانتشارها بغرب افريقيا، ثم يستعرض أهم "الطرق الصوفية" بالمنطقة وتحديدا القادرية والتجانية والمريدية واللاهينية، ليستكشف المقال، بعد ذلك، أدوار "الطرق الصوفية" على المستويات: السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية.

كلمات أساسية التصوف، الطرق الصوفية، غرب افريقيا.

المقدمة

دخل الإسلام إلى غرب إفريقيا خلال فترة حكم إمبراطورية غانا (300 – 1240م)، وانتشر فيها بواسطة معلمين استقر كثير منهم في مراكز مشهورة مثل تمبكتو وجني وبلاد شنقيط وبيرو وكوكي.[1] وفي القرون الثلاثة الأخيرة، برز في الميدان شيوخ من المتصوفة أنشأوا مراكز للتربية والتعليم وجمعوا فيها تلاميذ من مختلف القبائل والمناطق. وكان الخريجون يقومون عند رجوعهم إلى أهلهم بإنشاء مراكز أخرى. فتعددت المدارس وقام بين روادها علاقات روحية واجتماعية أدت إلى نشأة جبهة دينية تطورت لتصبح مجتمعا إسلاميا، فنشأت في هذا المجال طرق صوفية لعبت أدوارا شملت مختلف مناحي الحياة

طريقة البحث

1- دخول الطرق الصوفية وانتشارها بغرب إفريقيا

يعتبر ظهور الطرق الصوفية في السودان الغربي (غرب إفريقيا) أحد أهم وأبرز التطورات الثقافية والسياسية والدينية في التاريخ الحضاري لافريقيا جنوب الصحراء على مدار القرون الخمسة الأخيرة.

دخلت الطرق الصوفية إلى غرب افريقيا في القرن الخامس عشر الميلادي على أيدي رجال من توات استقروا بتمبكتو، ومن هذه المدينة، انتشر نشاطهم إلى مختلف أصقاع الغرب الإفريقي.

كانت الطريقة القادرية المنسوبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني (دفين بغداد عام 561هـ/1167م)، هي أولى الطرق الصوفية وصولا إلى غرب القارة. تبعتها – وربما سبقتها – الشاذلية، ثم التجانية في القرن التاسع عشر والتي عرفت انتشارا واسعا في غرب افريقيا بدءا من القرن التاسع عشر.

عندما نتحدث عن التأسيس للتصوف الطرقي في غرب افريقيا تتبادر إلى الذهن شخصيات صوفية كبيرة لعبت أدوارا محورية في مراحل تاريخية مختلفة وفي فضاءات جغرافية وبشرية متنوعة داخل منطقة الغرب الإفريقي، من بين هؤلاء الشيوخ: عثمان بن فودي في نيجيريا، والحاج عمر تال في السنغال،

---

[1] خديم محمد سعيد امباكي، **التصوف والطرق الصوفية في السنغال**، (الرباط: معهد الدراسات الإفريقية، 2002)، 8.

والشيخ أحمدو لبو في مالي، ومحمد الحافظ بن المختار بن الحبيب العلوي، والشيخ محمد فاضل مامين، ومحمد الأغظف الداودي، في موريتانيا. لكن، هناك شخصيتان صوفيتان لعبتا دورا تأسيسيا رائدا حكم مسار التصوف في الغرب الإفريقي لقرون عديدة، هاتان الشخصيتان هما: الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي (توفي عام 940هـ/1533م)، الذي غرس بذور التصوف الإفريقي وطبعه بطابع إصلاحي شديد الفاعلية، وأما الشخصية الثانية فهي الشيخ، سيدي المختار الكنتي (توفي عام 1226هـ/1811م)، الذي يعود له الفضل في التأسيس للتصوف الطرقي في غرب إفريقيا في ملتقى القرنين 18/17، كما منحه الفكرة التجديدية والأداة التنظيمية التي أهلته لمواجهة التحديات الدينية والحضارية التي عاشها السودان الغربي منذ انهيار دولة سنغاي سنة 1591.

لا شك أن الطريقة الصوفية في غرب إفريقيا رابطة روحية قوية، وطاقة نفسية صلبة، تنظم أفرادا من الأتباع في سلك واحد، وتحت قيادة مسموعة ومتبوعة، وكانت الطريقة تعمل عمل الجمعيات الخيرية الحديثة في السلم، وتعمل عمل الجيش الإسلامي في الحرب. وقد كانت الزوايا التي يتمركز فيها أصحاب الطرق، تقوم مقام الملاجئ للفقراء والمساكين، وتقوم مقام المعاهد والمدارس لطلبة الثقافة من القرآن والحديث والفقه والأخلاق، وتقوم مقام المساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا، حتى أنجبت الثقافات والحضارات والدول والحكومات التي يذكرها التاريخ، ويفتخر بها المسلمون اليوم في غرب إفريقيا، وفي العالم، وكل ما يذكر من آثار العلم والأدب والثقافة في تلك البلاد، إنما هي غرس من أغراس رجال الصوفية.[2]

[2] آدم عبد الله الإلوري، **آثار العلم والفلسفة والتصوف في مسيرة الدعوة الإسلامية**، (القاهرة: الطبعة الأولى، 1999)، 73.

وقد كان أغلب مسلمي غرب إفريقيا يلتزمون طريقة من الطرق الصوفية كالقادرية والتجانية والسنوسية، ومن رجال هذه الطرق، تكونت الجيوش الإسلامية التي قادها الدعاة الذين أسسوا الدول الإسلامية بغرب إفريقيا، وكان من أسباب تمسك الأفارقة بأوراد هذه الطرق وأذكارها ما يأتي:

– اعتقادهم أن لها تأثيرا كبيرا في الاستجابة لدعواتهم أو أن الولي الذي انتسبوا إليه، إنما حصل على درجة الولاية من تلك الأذكار.

– فطرة التدين في نفوس الكثيرين منهم فلم تطب نفوسهم بالاقتصار على الفرائض دون إضافة النوافل الخيرية إليها باعتبار أن الفرائض رؤوس الأموال، والنوافل هي الأرباح التي تؤخذ منها لتكميل الفرائض إذا انتقضت.

– كان العلماء يتشددون في ضرورة الأخذ بالتجويد لقراءة القرآن، فيهرب العوام من تلاوته إلى الالتزام بالأوراد التي يحصل لهم فيها الأجر والثواب دون تلاوة القرآن التي يأثمون منها إذا لم يجودوا القرآن كما يجب.[3]

2- أهم الطرق الصوفية بالغرب الإفريقي

أ- الطريقة القادرية

تعتبر إحدى أعرق وأقدم وأوسع الطرق الصوفية انتشارا في العالم الإسلامي، وهي أيضا، أولى الطرق الصوفية وصولا إلى الغرب الإفريقي، وتنتشر في إفريقيا أشكال متعددة من القادرية أبرزها:

– البكائية: نسبة إلى الشيخ سيدي أحمد البكاي الكنتي (كان حيّا سنة 1514). ومن أبناء البكاي وتلاميذه، تمددت الطريقة القادرية وترسخت في أصقاع عديدة من غرب إفريقيا، وكانت منطقة أزواد

---

[3] آدم عبد الله الإلوري، **توجيه الدعوة والدعاة في نيجيريا وغرب إفريقيا**، (القاهرة: مطبعة الأمانة، الطبعة الأولى، 1979)، 79 – 80.

بمالي وكذلك الشرق الموريتاني مركز البكائية الأول إلا أنها امتدت إلى نيجيريا عبر الشيخ عثمان بن فودي (توفي حوالي 1817)[4] الذي كان من أبرز تلاميذ الشيخ سيدي المختار الكنتي (توفي في 6 يونيو 1811) أحد أبرز أعلام وأحفاد مؤسس البكائية، بل يمكن اعتباره المؤسس الثاني للطريقة البكائية في الغرب الإفريقي. وللقادرية في طبعتها الكنتية تأثير قوي جدا في مالي حيث ينتمي عشرات الآلاف من البمبارة إلى الورد البكائي، ولها في السنغال، أيضا، مكانة كبيرة، حيث تمثل مدينة أنجاسان مركز ثقل القادرية البكائية، وتعتبر أسرة أهل بونعامه الموريتانية الأصل بيت الخلافة القادرية الكنتية في السنغال.

– الفاضلية: نسبة إلى مؤسسها الشيخ، محمد فاضل بن مامين (توفي في 23 أبريل1869)[5] الذي سلَّم رايتها إلى أبنائه الذين توزعوا في إفريقيا والمغرب، وامتد صيتهم الروحي إلى أصقاع عديدة، حيث كان الشيخ ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل (توفي في 25 أكتوبر 1910) مؤسس رباط وجهاد وحراك سياسي وفكري وروحي عميق في الصحراء المغربية، فيما كان أخوه الشيخ سعد بوه بن الشيخ محمد فاضل (توفي في 12 يوليوز 1917) على موعد مع ثورة روحية وانتشار واسع في الصيت والتأثير في غرب موريتانيا ومناطق واسعة من السنغال، وإذا كان الشيخان الأخوان قد تباينا في دائرتي المكان والأتباع فقد تباينا، أيضا، في الموقف من الاستعمار الفرنسي، فكان الشيخ ماء العينين وأبناؤه وتلاميذه أبرز رموز المقاومة ضد الفرنسيين، وكان الشيخ سعد بوه – بالمقابل – من أبرز رموز المهادنة ومسالمة الفرنسيين. وقد حدث كل هذا ضمن حالة انقسام واسعة طبعت المشهد العلمي والروحي في موريتانيا تجاه المستعمر الفرنسي بين من رآه غازيا كافرا تتوجب مقاومته، ومن رآه حلا لأزمة الأمن والفوضى التي كانت تعصف بالبلاد عموما.

---

[4] الشيخ عثمان بن فودي: عالم ومصلح نيجيري (1754 – 1817) أسس دعوة تجديدية واسعة في نيجيريا وكان له دور أساسي في النهضة الإسلامية التي عرفها جزء مهم من غرب افريقيا.

[5] محمد فاضل بن مامين القلقمي الموريتاني ينتمي إلى أسرة من الأشراف الحسنيين وهو أب لعدد كبير من المشايخ المشهورين في موريتانيا وغرب إفريقيا.

وللفاضلية تأثير قوي في السنغال عبر مشربين صوفيين، هما: مشرب الشيخ المحفوظ بن الطالب أخيار (توفي في نونبر 1919) في مدينة دار السلام، ومشرب الطريقة السعدية، نسبة للشيخ سعد بوه، التي جعلت من قرية النمجاط الموريتانية محجة يفد إليها آلاف المريدين في نهاية رمضان من كل عام، حيث يقيمون شعائر الاحتفاء والتقديس حول ضريح الشيخ سعد بوه بن الشيخ محمد فاضل، وللفاضلية، أيضا، حضور قوي في غامبيا وساحل العاج ودولة غينيا.

تعد القادرية أم الطرق الصوفية في إفريقيا، وأبرز بوابات الإسلام إلى إفريقيا، بل إن الغالبية العظمى من الأفارقة ما عرفوا الإسلام إلا من خلال القادرية وعلمائها ودعاتها وزواياها والتجار المنتمين إليها، ويصف بعض الباحثين علماء ودعاة الطريقة القادرية بأنهم "من أحسن مبشِّري الدين الإسلامي في غرب إفريقيا من السنغال إلى بنين وهم ينشرون الإسلام بطريقة سلمية بعيدة عن القتل والضرب''.[6]

ب- الطريقة التجانية

أُعتبر الغرب الإفريقي الحاضنة النموذجية والمنشأ الثاني والمستقر الأبرز للطريقة التجانية بعد منطلقها الأول في الجزائر ومستقرها بعد ذلك في فاس المغربية، ودخلت التجانية إلى إفريقيا الغربية عبر بوابات ورموز ومشايخ متعددين، أبرزهم الشيخ محمد الحافظ بن حبيب الله العلوي الشنقيطي (توفي عام 1831) الذي كلَّفه الشيخ سيدي أحمد التجاني (توفي في شتنبر 1815) بنشر الطريقة في الغرب الإفريقي، وصار سنده في الطريقة التجانية معروفا بالسند الحافظي، وعن العلوي الشنقيطي أخذ جل علماء ومقدّمي الطبقة الأولى من أشياخ التجانية في الغرب الإفريقي.

ومن أبرز رموز الطريقة، أيضا، الحاج عمر الفوتي (توفي في 12 فبراير 1864) الذي أخذها عن الشيخ مولود فال اليعقوبي الشنقيطي (توفي في يناير 1851)، وكذلك الحاج مالك سي (توفي في 17

---

[6] ابن الشيخ إبراهيم جوهر، **الصوفية والدعوة الإسلامية**، (دار الهجرة الأولى، د.ت)، 17.

يونيو 1922) الذي أسس أحد أهم مراكز الصوفية في غرب إفريقيا، وجعل من مدينة تيواون السنغالية مركز إشعاع تيجاني طويل المدى.

ولقد بلغت التجانية أوج انتشارها مع الشيخ إبراهيم انياس (توفي في 27 يوليوز 1975)[7] الذي نقل السند الحافظي للطريقة التجانية إلى مرحلة عميقة من الانتشار والتمدد، وكان لمريده الموريتاني، الشيخ الهادي بن السيد بن الشيخ بن سيدي مولود فال (توفي في ماي 1982)، دور عميق في نشر التجانية في نيجيريا، وما جاورها من بلاد إفريقيا، كما امتدت التجانية إلى مختلف دول غرب إفريقيا وكانت أحد أهم منافذ الهوية الروحية لشعوب إفريقيا الغربية.

أما الحموية، فهي فرع من الطريقة التجانية نافس الطريقة الأم وأعاد تحوير بعض أورادها، وقد أسس الطريقة الشيخ الموريتاني، أحمد حماه الله بن سيدينا عمر التيشيتي (توفي في 16 يناير 1943)، واستطاعت في زمن قياسي مد ظلالها على أصقاع كبيرة من إفريقيا الغربية وخصوصا في مالي وساحل العاج والغينيتين.

وقد كان أن ارتبطت الحموية بشيخها المؤسس، الشيخ حماه الله، الذي توفي منفيا في فرنسا بعد فترات نفي أخرى في دول إفريقية متعددة، وقد أسهمت تلك المنافي في نشر الإسلام والطريقة الحموية في دول عديدة من الغرب الإفريقي. وتتخذ الطريقة الحموية من مدينة انيور المالية مستقرا لها حاليا.

وقد توسعت التجانية في غرب إفريقيا عبر شيوخ وعلماء ومدارس متعددة، وكان للشيخ، الحاج عمر الفوتي، السبق في نشر الطريقة التجانية في المنطقة، وتوزع تلاميذه من بعده في أقطار متعددة من إفريقيا، حيث كان للشيخ محمد المختار بن أحمد بيللي سال (1860 – 1930) دور مهم في تقديم الطريقة التجانية إلى المناطق الساحلية، مثل: الغابون وغانا والطوغو، وساحل العاج، وسيراليون. وفي

[7] يعود الفضل للشيخ إبراهيم بن عبد الله انياس السنغالي (1900 – 1975) في النقلة النوعية التي عرفتها الطريقة التجانية في إفريقيا بشكل عام.

بوركينافاسو كان للشيخين، أبوبكر ميغا وعبد الله دوكري دور مهم في مد ظلال التجانية بين السكان، وقد مارس عليهما الاستعمار الفرنسي اضطهادا سياسيا عزّز من مكانتهما الاجتماعية.[8]

والتجانية في الغرب الإفريقي متغلغلة في دوائر النفوذ بشكل كبير جدا وإليها تنتمي نخب كبيرة من مختلف قطاعات المجتمعات الإفريقية وفي كل مفاصل الدول ومجالات التأثير الفعال في المجتمعات. وإلى جانب ذلك، فإن للطريقة التجانية، أيضا، سندا كبيرا وهو المغرب الذي يحتضن الخلافة العامة للتجانية. ويمكن اعتبار التجانية إحدى أوراق التأثير القوية ومظاهر القوة الناعمة للمغرب في مختلف دول إفريقيا.

ج- المريدية

يعود تأسيس هذه الطريقة إلى الشيخ أحمدو بمبا بن حبيب الله السنغالي (توفي في 19 يوليوز 1927)، وأنهى بتأسيسها فترته القادرية التي أخذ أورادها على يد الشيخ الموريتاني بابا بن الشيخ سيديا الأبييري (توفي في 12 يناير 1924)، وتنتهي أوراد المريدية عند الشيخ أحمدو بمبا ثم ترتفع بعد ذلك إلى النبي صلَّى الله عليه وسلَّم، كما تقول التعاليم والأدبيات المريدية الشائعة.

وللمريدية انتشار كبير في السنغال وفي غرب إفريقيا بشكل خاص، وقد عانى مؤسسها من النفي والاضطهاد من قبل الفرنسيين حيث تعرض للنفي في موريتانيا والكاميرون. ومقر الطريقة المريدية الآن هو مدينة طوبى التي أسسها الشيخ أحمدو بمبا مستلهما اسمها من الآية القرآنية "طوبى لهم وحسن مآب''،[9] ويجتمع في طوبى سنويا موسم للطريقة يصل حضوره السنوي إلى خمسة ملايين زائر.[10]

---

[8] عمر سعيد غانمي، "الطريقة التجانية ودورها في نشر الإسلام بغرب إفريقيا''، موقع المدى، 4 مارس 2011، تم الولوج بتاريخ 2025/06/17، في: https://elmeda.net/article/39

[9] سورة الرعد، الآية 29.

[10] "طوبى تحكم السنغال بالمال والأتباع''، الجزيرة نت، 13 ماي 2010، تم الولوج بتاريخ 2025/06/18، في: https://goo.gl/qJCofm

د- الطريقة اللاهينية

تعد كلمة (اللايين) تحريفا لكلمة (إلهيين) نسبة إلى الإله، ويختص بهذا الاسم أتباع شيخ يدعى لباس تياو (1843-1909)، ويُلقب بليمامو لاي، أي الإمام الذي عينه الله. وُلد هذا الشيخ في قرية يوف، غرب دكار. ولما بلغ الأربعين من عمره ادَّعى أنه المهدي وأنه كُلف بالدعوة إلى الله فتقبَّل فريق من جيرانه إعلانه بقبول حسن. وقد انضم إليهم آخرون فأثاروا شبهة الإدارة الاستعمارية، حتى زعمت أن الإمام كان يُعِد جنودا للقيام بالجهاد، مع أن الإمام كان قد أعلن بصراحة في هذا الصدد: "أما نحن فما لنا أن نشن حربا مقدسة؛ إننا نحضكم على مجاهدة أنفسكم وأهوائكم''.

وقد أطلق دعوته في 24 ماي 1884، تاريخ الاحتفال السنوي الكبير للطريقة، واجتهد في نشر تعاليمه في الفترة الممتدة من عام 1887 إلى وفاته. وكان يعلِّم الناس أنه تجسيد للنبي صلَّى الله عليه وسلَّم، وأضاف: "من كان عنده شيء يعطيه لمحمد فليأت به إليَّ فأنا صاحبه''. وكان يزعم أن إيمان المسلم يبقى ناقصا ما لم يقبل أقواله. وقال لزوجاته: "أخبركن بأن صاحبكن المألوف، ليمامو، تغير لأن الله فعل به ما أراد. كلفني بدعوة الناس إليه لهدايتهم''.

3- أدوار الطرق الصوفية بغرب إفريقيا

أ- على المستوى السياسي

إن المتمعن في نشأة الطرق الصوفية في غرب إفريقيا وفي ممارساتها الأولى يجد أن هناك أدوارا تاريخية لعبها التصوف في المجتمعات الإسلامية في هذه المناطق، سواء تعلق الأمر بالجهاد لطرد المحتل أو لنشر الإسلام وحماية الأقليات المسلمة في المناطق التي شهدت جور الإمارات الوثنية، إذ أسَّس الشيخ عثمان بن فودي إمارة إسلامية في سوكوتو بشمال نيجيريا، "وهي دولة ضمت مساحات شاسعة من

النيجر حاليا ومن نيجيريا، واستمر حكمها ما يقرب من قرن''.[11] وفي سنة 1818 أسّس شيخو أحمدُ دولة ماسينا الإسلامية في شرق السودان (مالي حاليا) وحكمها نجله من بعده أحمدُ الثاني لتنتهي مع حفيده أحمدُ الثالث، وهذه الدول قامت بالنفوذ الروحي للشيخ سيد المختار الكنتي المؤسس الثاني للطريقة القادرية في الصحراء الكبرى والسودان القديم.

وقاد الحاج عمر تال الفوتي (1796 – 1864) الفوتيين في منطقة فوتا بالسنغال لإقامة دولة إسلامية في إفريقيا الغربية، وقد حقق نجاحات عسكرية كبرى قبل أن تسهم عوامل ضعف التأهيل السياسي والصراع مع القادريين والمعارك في بلاد ماسينا في هزيمة جيشه وتراجع مشروعه السياسي. يقول الحاج عمر تال موضحا هدفه: "قتال الكفار أمر لا أنفك عنه حتى يمحق الله الكفر بدولة الإسلام''.[12]

وبتأثير من الحاج عمر سعيد الفوتي قاد تلميذه ومريده المعلم القرآني الشاب بمباه جاخو (توفي عام 1867)، الأهالي في منطقة ريب Rip المتاخمة للحدود السنغالية الغامبية لتأسيس دولة خاصة بهم بعد طغيان وظلم الوثنيين، "وأخذ بمباه يضع دعائم دولته، وقام بعدة غزوات ضد الوثنيين، كما صد هجوما خطيرا شنته القوات المسلحة الفرنسية بقيادة الحاكم الفرنسي بالسنغال إيميل بينيت لابراد Émile Pinet– Laprade وكبَّده خسائر فادحة''.[13]

وفي موريتانيا نجد مؤسس الطريقة الحموية التجانية الشيخ أحمد حماه الله يتزعم ثورة على الفرنسيين في المناطق الشرقية من البلاد أدت بهم إلى نفيه حيث مات في منفاه بمدينة Montesson بفرنسا في 16 يناير 1943.

---

[11] يُنظر: قاسم جاخاتي، "الوحدة والتضامن في الطرق الصوفية"، **مجلة المغرب الإفريقي**، عدد 7، (2006).

[12] امباكي، **التصوف والطرق الصوفية**، 57.

[13] جاخاتي، "الوحدة والتضامن في الطرق الصوفية"، 24– 25.

كما شكل ما عرف بالمقاومة الثقافية موقفا سياسيا قويا ضد الاستعمار الفرنسي قادته الطرق الصوفية في موريتانيا، وكان مؤداه مقاطعة المدارس الفرنسية باعتبارها "مدارس النصارى". وضايقت السلطات الفرنسية الشيخ أحمدو بمبا مؤسس الطريقة المريدية في السنغال ونفته مرتين إلى الغابون ثم موريتانيا بعد تخوفها من سرعة تزايد أنصاره.

ولا تنحصر الجوانب السياسية في تاريخ الطرق الصوفية في غرب إفريقيا على هذا النموذج الجهادي الساعي لإقامة دول إسلامية أو المقاوم للاستعمار، بل نجد نموذجا سياسيا آخر يؤكد اختيار المشاركة السياسية وإن كان موقفه مهادنا للسلطات وللمستعمر، يمثل هذا النموذج مواقف الشيخ سعد بوه ولد الشيخ محمد فاضل (توفي في 12 يوليو 1917)، والشيخ سيديا بابا (توفي في 8 يناير 1924) وكلاهما في جنوب غرب موريتانيا، والحاج مالك سي (1855 – 1922) في السنغال الذي أقام علاقات مع الإدارة الاستعمارية، وتعبِّر إحدى الوثائق التي هي عبارة عن مقال في شكل بلاغ للناس عن هذا التوجه: "أوصيكم أن توافقوا الدولة الفرنساوية لأن الله تعالى خصهم بنصر وفضل ومزية وجعلهم سببا في صون دمائنا وأموالنا، ولذلك وجب علينا أن نتأدب معهم... ولا تضجروا من ما يأخذونه منكم لأن ذلك عند من استعمل العقل إعانة لا غرامة".[14]

من الجلي أنه ليست هناك ثوابت سياسية للطرق الصوفية في غرب إفريقيا، ولا أدبيات موجِّهة تعتبر التداول السياسي اليومي أمرا يجب أن ينزه عنه التصوف، كما يظهر أن هذه الطرق لم تقف – تاريخيا – موقفا واحدا من الظواهر والإشكالات السياسية في مجتمعاتها، بل إن فروع ومشايخ الطريقة الواحدة سلكوا المسلك ونقيضه في التعامل مع السلط السياسية، كما هو الحال في الطريقة القادرية في فرعيها

[14] امباكي، **التصوف والطرق الصوفية**، 68 – 69.

البكائي والفاضلي، وكما هو الحال في الطريقة التجانية ممثلة في الحاج عمر تال بن سعيد الفوتي وكذلك الحاج مالك سي.

وفيما يخص التحول الذي عرفته الطرق مع نشأة الدول الوطنية وترويض التصوف في غرب إفريقيا في اتجاه واحد، فإن مردَّه – على الأرجح – استغلال الجدال الثقافي والصدام المذهبي مع الدعوة الوهابية، وتوجيه التصوف للقيام بأدوار دينية في خدمة السلطة التي تواجه المد الحركي الإسلامي في أشكاله السلفية والإخوانية، وهكذا وُظِّف تقاطع المصالح بين الشيوخ الطرقيين – الذين أصبحوا يخشون على نفوذهم من الإنكار التبديعي الذي تقوم به الحركات السلفية خصوصا – والسلطات التي تخشى من النفوذ المتنامي للتيارات الإسلامية التي تقدم خطابا سياسيا يهدد المشروعية السياسية لها.

ولذلك أصبح التأكيد على البعد الروحي يرد في أدبيات هذه الطرق في مقابل التدخل في الشأن السياسي، خصوصا إذا كان هذا التدخل معارضة لولي أمر المسلمين، ومن ثم توجيه الأتباع بأن الجهاد يقتصر فقط على جهاد النفس، واعتزال الدنيا، والسعي إلى طريق الله قصد التقرب إليه. والحقيقة أن الصوفية في الدولة الوطنية قامت بتوظيف قيم روحية إيمانية توظيفا سياسيا، ومن أمثلة ذلك فهمهم لمعاني الرضا والتوكل في مثل هذه المقولة الصوفية الشائعة: "لا تجوز مقاومة الحكام ومغالبة السلاطين، لأن الله أقام العباد فيما أراد."

أعطى الوزن الاقتصادي والاجتماعي للطرق أهمية سياسية كبيرة لها، وقد أدركت السلطة السياسية التقليدية هذه الحقيقة فسعت للتحالف مع الطرق من أجل تسخيرها للحصول على مقاصدها، فاتصل الملوك المحليون مثل لاتْ جُورْ، وصمب لاوبه، وعالي بوري، في القرن التاسع عشر بالشيخ أحمد بمبا طالبين مساعدته في استعادة عروشهم مقابل قيامهم بالدفاع عن الإسلام إذا تم لهم ما أرادوا.

وقد تفطنت السلطات الاستعمارية إلى المكاسب السياسية التي كان يمكن تحقيقها باستعمال الطرق، فبتت الفرقة بينها واستغلت التنافس القائم بين أتباع الطرق ليجند بعضهم ضد بعض، حتى أوجدت لها حلفاء من القادريين الفوتاويين لمحاربة الثوار التجانيين واستعملت بعض هؤلاء لمراقبة المريديين ومضايقتهم.

حاليا، ومع وصول المريدين الصوفيين بإفريقيا إلى أكثر من 100 مليون حسب بعض الإحصاءات، فإن سياسات الدول تسعى إلى الاستعانة بالطرق الصوفية في خلق ظهير ديني لسلطانها يدعمها في المحطات الانتخابية والتحالفات السياسية، مقابل امتيازات ومصالح، وقد اشتدت حاجة الدول للطرق الصوفية مع تنامي الحركات الإسلامية، لاسيما تلك العنيفة المتطرفة، فأصبح البعض ينادى بالاستعانة بالتصوف في مواجهة التطرف.

يشكل الحضور القوي للصوفية ببعض الدول الإفريقية في المشهد السياسي أحد أبرز الملامح السياسية بهذه الدول، خصوصا دولة نيجيريا والسنغال والكاميرون، حيث إن الصوفية أدت على مدار السنوات الأخيرة دورا حاسما في توجيه البوصلة السياسية بافريقيا، وقد عملت الأنظمة على استغلالها في حل الكثير من العقد والتجاذبات السياسية المحلية.

وبذلك، نقول أن إحدى المقولات التأسيسية المتعلقة بدور التصوف السياسي تذهب إلى أن التصوف الذي يمثل إسلاما منفتحا معتدلا هو وحده القادر على الوقوف أمام حركات التطرف والإرهاب، في حين تتهمه مقولات أخرى بهلامية المبادئ وتشبعه بقيم التسامح المطلق المتجاوز لحدود العقيدة والثوابت الإسلامية، واعتماد الأنظمة الحالية عليه لضرب الحركات السياسية الإسلامية؛ والذي يؤكده الاستقراء أن الدور الممانع للتصوف إبان الاستعمار لم يعد له وجود منذ قيام الدولة الحديثة، وأن الدور السياسي للتصوف أصبح منحصرا في الدعم غير المحدود للسلط الحاكمة.

ب- على المستوى الثقافي

أقام مؤسسو الطرق وناشروها مدارس للعلوم الشرعية، وكان كبار الشيوخ يتولون التدريس فيها ويُعدُّون أولادهم لمواصلة العمل، وكان المتخرجون فيها يقومون بإنشاء مدارس مماثلة في مناطقهم، فانتشر بذلك التعليم الديني.

وخلال ستينات القرن العشرين، جعل الشيوخ يرسلون أولادهم إلى جامعات العالم العربي. ثم قام خريجو تلك الجامعات بفتح عدد من المدارس، لكنها ظلت تعتمد ماليا على الأجور التي يدفعها أولياء أمور الطلبة. ولما كان أكثر هؤلاء فقراء، كان من الطبيعي أن تكون الموارد منخفضة، الأمر الذي جعلها غير كافية لتغطية نفقات المدارس. ورغم ذلك، أضيفت إليها المرحلتان الإعدادية والثانوية. بل امتاز بعض المعاهد لجدية القائمين عليها وإخلاصهم وتفرغهم لها. ومنها على سبيل المثال ما يوجد بدولة السنغال مثل معاهد الأزهر ومعهد الدروس الإسلامية بجوربل ومعهد تفسير أحمد باه والمعهد الإسلامي بلوغا ومعهد الشيخ عبد الله نياس بكولخ[15].

وتعتبر المحاضرات التي تُنظَّم في نهاية الأسبوع وأثناء الأعياء الدينية لتوعية الأتباع وحثهم على التمسك بالطريقة من أهم وسائل التثقيف الشعبي. ويستغل لهذا الغرض الاحتفال بالمولد النبوي وكذلك "المواسم" التي تقيمها شخصيات دينية وتُبث عبر وسائل الإعلام.

ومن أهم جوانب مساهمة الطرق الصوفية في الحياة الثقافية ذلك الإنتاج الأدبي الغزير الذي خلَّفه شيوخ الطرق، ممثَّلا في قصائد علمية في النحو والفقه والتوحيد وقصائد في الأخلاق والتصوف ومدح رسول

---

[15]- للتوسع في هذا الشأن، يُنظر مثلا: خديم محمد سعيد امباكي، "التعليم الإسلامي في السنغال: الواقع والمأمول"، **حوليات الجامعة الإسلامية في النيجر**، عدد 6، (2000)، 405 – 451.

الله صلَّى الله عليه وسلَّم. كما أثّرت الطرق على جميع جوانب الحياة الفردية كالملابس والأطعمة وطريقة إعدادها والفكر واللغة والفن.

ج- على المستوى الاقتصادي

للطرق الصوفية دور في التنمية الاقتصادية عن طريق الإنتاج الزراعي، وهو المجال الأوسع لنشاط شيوخ الطرق، فقد بدأوا منذ ما يربو على قرن بتأسيس قرى زراعية يجمعون فيها تلاميذهم ويستعملونهم في استغلال حقول كبيرة من الفستق السوداني والحبوب المختلفة مقابل تربيتهم. وتتوقف أهمية الحقول وحجم إنتاجها على منزلة الشيخ، ولذلك يملك الخلفاء أراضي تبلغ آلاف الهكتارات ويستغلونها على وجه يضمن لهم النصيب الأوفر من الإنتاج.

أما نفقات الشيوخ فتتفاوت حسب منزلتهم في الطريقة، والخليفة يعتبر في نظر التابع معينا لا ينضب، يلجأ إليه عند الضرورة ليأخذ منه ما وُضع عنده أو أكثر. ويفترض أن يقوم الخليفة، ومثله سائر الشيوخ، بتقديم معونات مالية لعدة شرائح اجتماعية، منها:

- الفقراء من أتباع الطريقة: من المنطقي أن يكون أول من يستفيد من خيرات الطريقة رؤساؤها وأقاربهم المحتاجون ثم سائر أفرادها. وتحيط بكل خليفة، أو تتردد عليه، مجموعة كبيرة من الفقراء لنيل صدقات منه، وهم عادة العجزة والمعاقون الذين قدَّموا، أو قدَّم آباؤهم، خدمات كبيرة للطريقة.

- الفقراء من غير الطريقة: يعتبر الفقر عاملا حاسما من عوامل التقارب بين الفئات الدينية المختلفة، إذ يزيل الحدود المفتعلة ويحمل الفقير على التوجه إلى كل شخص يرجو فيه الخير. والفقراء يعتقدون أن الشيخ هو الملجأ الأول لطالب المساعدة. ويهبُّ الشيخ إلى إغاثة الفقير دون قيد ولا شرط عملا بواجبه الديني.

د- على المستوى الاجتماعي

يطال تأثير الطرق مختلف جوانب الحياة الاجتماعية، ذلك أن الخليفة ونوابه يلعبون دورا اجتماعيا يطغى أحيانا على دورهم الديني، إذ يجسدون، في نظر العامة، رئيس القبيلة وأعوانه في المجتمع التقليدي. يقومون بتزويج الرجال والنساء من أتباعهم مع الحرص على أن يتم الزواج في إطار الطريقة؛ رغبة في إنشاء شبكة من التحالفات لتمتين جبهتها الداخلية.

ويعود الدور الأكبر في تسوية الخلافات إلى الشيوخ أو ممثليهم، ذلك أنهم يتوسطون في النزاعات الناشبة بين فئات مختلفة داخل الطريقة أو بينها وبين غيرها وخصوصا في الريف حيث يفضِّل الناس اللجوء إليهم على التقاضي أمام المحاكم. ويُطلب من الشيخ أن يلعب دور الوسيط في الصراعات الاجتماعية التي تقع بين العمال ومستخدميهم، ويتدخل لإيجاد عمل للعاطلين عنه من أتباعه أو للحصول على وظائف أفضل. ذلك أن كل طريقة تود لو يحتل أتباعها أرقى المناصب، وهذا مجال خصب لاستثمارات الطريقة الاجتماعية، إذ يزيد ذلك من نفوذها. وللطرق وسائل تأثير اجتماعية تعرف بالدوائر، وهي جمعيات شعبية تضم أتباع الطريقة المقيمين في مكان واحد ويكون لها عادة جهاز إداري يتكون من رئيس ونائب رئيس وأمين عام وأمين الصندوق. وقد تضم الدائرة عمال شركة أو مصنع أو وزارة. وقد تشمل جميع أتباع الشيخ المقيمين في مدينة ما، وربما انصهرت دوائر عديدة في اتحاد.

وتتكون واردات الدوائر من اشتراكات شهرية ومساهمات اختيارية، وتقوم كل دائرة بتنظيم زيارات جماعية إلى مقر الشيخ يسلم إليه خلالها معظم المال الذي تم جمعه. وتجتمع الدوائر أسبوعيا أو شهريا، وتقوم بتفقد أحوال أعضائها ومساعدتهم

خاتمة

مثلت الطرق الصوفية ظاهرة دينية بارزة في تاريخ المجتمعات الإسلامية، حيث إن هذه الطرق نشأت في وقت مبكر من تاريخ الإسلام وظلت طوال القرون الماضية تنتشر وتتوسع داخل بلاد الإسلام،

ويتعاظم تأثيرها الديني ونفوذها الاجتماعي. وقد جسدت هذه الطرق في الغرب الإفريقي خلال الحقبة الاستعمارية طليعة المقاومة الثقافية للغزو الأجنبي للبلاد الإسلامية، وقاد بعض زعمائها جبهات عسكرية مسلحة ضد المستعمر مثل المجاهد الحاج عمر تال الفوتي أحد أبرز شيوخ الطريقة التجانية في السنغال والشيخ ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل في موريتانيا.

غير أن هذه الطرق وإن ظلت تنأى بنفسها عن ممارسة السياسة بشكل مباشر منذ نشوء الدولة الوطنية الحديثة، إلا أنها ظلت تشكل رقما صعبا بفعل نفوذها الاجتماعي والديني والاقتصادي الكبير، ما جعل هذه الطرق في الغرب الإفريقي تشكل جزءا من المعادلة السياسية سعت النظم السياسية المختلفة لإدارة العلاقة معها بما يضمن مصالحها.

المراجع

- امباكي، خديم محمد سعيد. "التعليم الإسلامي في السنغال: الواقع والمأمول"، **حوليات الجامعة الإسلامية في النيجر**، عدد 6، 2000.

- امباكي، خديم محمد سعيد. **التصوف والطرق الصوفية في السنغال**، الرباط: معهد الدراسات الإفريقية، 2002.

- الإلوري، آدم عبد الله. **آثار العلم والفلسفة والتصوف في مسيرة الدعوة الإسلامية**، القاهرة: الطبعة الأولى، 1999.

- الإلوري، آدم عبد الله. **توجيه الدعوة والدعاة في نيجيريا وغرب إفريقيا**، القاهرة: مطبعة الأمانة، الطبعة الأولى، 1979.

- جوهر، ابن الشيخ إبراهيم. **الصوفية والدعوة الإسلامية**، دار الهجرة الأولى، د.ت.

- جاخاتي، قاسم. "الوحدة والتضامن في الطرق الصوفية"، **مجلة المغرب الإفريقي**، عدد 7، 2006.

- غانمي، عمر سعيد. "الطريقة التجانية ودورها في نشر الإسلام بغرب إفريقيا"، موقع المدى، 4 مارس 2011، تم الولوج بتاريخ 2025/06/17، في: https://elmeda.net/article/39

- "طوبى تحكم السنغال بالمال والأتباع"، الجزيرة نت، 13 ماي 2010، تم الولوج بتاريخ 2025/06/18، في: https://goo.gl/qJCofm